

المقالة الإصلاحية عند البشير الإبراهيمي بين التأسيس التقليدي ورؤى التجديد " الإنسانية أنموذجاً"
The reformist article of Al-Bashir Al-Ibrahimi between traditional furnishing and visions of renewal, "Humanity as a Model"

1 غالم شفيق *

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية في الجزائر من العهد التركي إلى نهاية القرن العشرين - جامعة عبد الحميد بن باديس ،

مستغانم (الجزائر)، chafiq.ghalem@etu.univ-mosta.dz،

2. د. قاضي الشيخ kadiadab@gmail.com

تاريخ الإرسال 26-01-2025 تاريخ القبول 08-03-2025 تاريخ النشر 16-03-2025

ملخص:

إنّ الهدف من هذه الورقة البحثية هو محاولة استظهار مواطن الجمال في الخطاب الإصلاحيّ الجزائريّ وذلك بالكشف عن مظهرات التأسيس التقليديّ في بناء المقالة الإصلاحية وتبيان رؤى الحداثة فيها ، على اعتبار المقال آلية إصلاحية اعتمد عليها زعماء الحركة الإصلاحية في نقد الواقع وتصويره وتطهير الإنسان من بقايا التخلف ، إيماناً منهم بقوة الكلمة في الإصلاح والارتقاء بالنفس البشرية ، وتكمن أهمية البحث في كونه أداة للتعرف على بنية المقال الإصلاحيّ الجزائريّ ووسيلة لاستظهار كنه التاريخ الجزائريّ باعتبار النص وثيقة تاريخية ، إضافة إلى ذلك الإحاطة المواطن الجمالية في النصوص الأدبية الجزائرية. وعليه جاءت إشكالية البحث كالتالي : هل اصطبغ المقال الإصلاحيّ بصبغة المحاكاة أم أنّ لمسة التجديد ميّزته ؟ وإلى أيّ مدى بلغ تأثير مدرسة الصنعة اللغوية في أسلوب البشير الإبراهيمي وفي مقالاته الإصلاحية ؟

وقد خلص الباحث إلى نتائج أهمها: أنّ مدرسة الصنعة اللغوية قد أثرت في الصياغة الأدبية للمقال الإصلاحيّ عند الإبراهيمي، كما أنّه أسلوبه قد مزج بين تأثره بالتأسيس التقليديّ في لغته وبين اصطباغه بنفحات الحداثة في مضمونه.

الكلمات المفتاحية: (المقالة ، الخطاب ، الإصلاحيّ ، الحداثة ، المحاكاة)

Abstract: The aim of this paper is to explore the beauty of the Algerian reformist discourse by revealing the manifestations of the traditional heritage in the construction of the reformist article and identifying the visions of modernity in it, considering the article as a reformist mechanism on which the leaders of the reformist movement relied in criticizing and depicting reality and purifying the human being from it. The importance of the research lies in the fact that it is a tool to identify the structure of the Algerian reformist article and a means to explore the essence of Algerian history, considering the text as a historical document, in addition to the aesthetic aspects of Algerian literary texts. The research question is as follows: Is the reformist article characterized by mimicry or does the touch of innovation characterize it? To what extent was the influence of the school of verbal craftsmanship in the style of Bashir al-Ibrahimi and his reformist articles?

The researcher came to the following conclusions: The researcher concluded that the school of verbal craftsmanship influenced the literary formulation of Brahimi's reformist essay, and that his style blended between being influenced by traditional furnishings in his language and being infused with the whiff of modernity in his content

Keywords : (Article , Rhetoric, Reformism, Modernity, Simulation)

1. مقدمة:

عرفت الكتابة الثرية في العصر الحديث والمعاصر ميلاد فنون أدبية جديدة ، أرست دعائمها في الأدب العالمي نتيجة تضافر العديد من العوامل التي مهدت لظهورها ولعل العامل المشترك بين هذه المؤثرات هو التغيرات التي طالت حياة الإنسان على مستوى الحيز الثقافي والاجتماعي والفكري .

وعند الحديث عن الأدب العربي لابد من إثبات أن بواكر التجديد في الكتابة العربية ارتبطت بعصر النهضة ، خاصة أن الأدب العربي بشقيه الشعري والنثري ، اتسم بنوع من الجمود والتراجع ، امتد لفترات زمنية طويلة والحديث هنا عن عصر المماليك والأتراك ، الذي ولي العصر الذهبي أزهى عصور الأمة الإسلامية ، والفترة التي بلغت فيها الإنتاجات الأدبية أوجها ووصل العطاء الفكري إلى ذروته ، وبالعودة إلى العصر الحديث ، فإن الحديث يفضي إلى الفنون الثرية التي برزت في الساحة الفنية وصنعت لنفسها مكانة بين الأجناس الأدبية ، كفن المقال، والقصة والمسرحية والرواية . ظهر فن المقال في العصر الحديث بشكله الناضج بعد محاولات متعددة، وتطور نتيجة ارتباطه بالصحافة بالدرجة الأولى ، ومن البديهي أن هذا الفن تبلور في المشرق العربي ومصر ، ذلك أن النهضة العربية انطلقت من الشرق العربي نحو غربه ، ليصل بعدها إلى الجزائر ويحظى بمكانة مرموقة لدى زعماء التيار الإصلاحي ، ومن هذا المنطلق تنبثق التساؤلات التالية :

ما المقصود بالمقال الإصلاحي ؟ كيف ومتى ظهر في الجزائر ؟ هل اصطبغ المقال الإصلاحي بصبغة التقليد أم أن لمسة التجديد ميزته ؟ وإلى أي مدى بلغ تأثير مدرسة الصنعة اللفظية في أسلوب البشير الإبراهيمي ومقالاته الإصلاحية ؟ هل كان فعالاً في عملية التغيير والإصلاح أم أنه المستعمر قيده و ظل حائلاً دون ذلك ؟

2. ماهية المقال بين اللغة والاصطلاح :

1.2 . لغة :

بالعودة إلى المعنوي اللغوي لكلمة مقال ، يتضح أنها حمالة معانٍ ، وقد وردت الكلمة في معجم مقاييس اللغة : " قول: القاف والواو واللام أصل واحد صحيح يقل كلمه ، وهو القول من النطق ، يقال : قال يقول قولاً ، المقول : اللسان ، ورجل قولاً ، وقولاً : كثير القول ¹ "، فجذر الكلمة يحيلنا إلى معنى النطق بالشيء ، وعموماً ولا يوجد في معنى الكلمة تحديد لهذا نوعية الكلام ، نافعاً كان أم غير ذلك ، فالقول أعم وأوسع ، ونلاحظ أن كلمة مقال لم تضبط في المعجم على النحو السابق . أمّا في لسان العرب فقد وردت الكلمة على النحو التالي : " القول الكلام على الترتيب ، وهو عند المحقق كل لفظ قال باللسان ، تاماً كان أو ناقصاً ، تقول فلان يقول قولاً ن والفاعل قائل والمفعول مقول ² " ...

فالقول عند ابن منظور الألفاظ التي تبني عليها الكلام ، وقد حصره في المنطوق باللسان ، ولذلك أطلق صاحب مقاييس اللغة على اللسان كلمة "المَقُول" لأنها أداة القول ، وتشترك المعاجم القديمة في عدم وجود لفظة مقال/مقالة في متنها ، وعليه فإن كلمة مقال مصدر ميمي دال على قول تكلم به الفرد ونطق به.

2.2 اصطلاحًا :

من المسلم به أنّ الحظ الأكبر من اهتمام العرب بفنون الأدب ، حظيت به الحركة الشعرية على حساب الحركة النثرية ، التي لم يبرز فجرها على الوجه الأتم إلا في عصر النهضة الأدبية ، أين صنعت الفنون النثرية لنفسها مكانة في التراث العربي ، هذا لا ينفي وجود فنون نثرية في تراثنا الأدبي القديم ، فقد عرف العرب فنّ الخطابة والمقامات والسير والألغاز وغيرها ، إلا أنّها لم تنافس الشعر في المكانة والاهتمام . ولأنّ العرب لم يعرفوا هذا الفن الحديث العهد إلا في فترات ليست بالبعيدة ، فمن البديهي أنّ لا تصادف تعريفًا كافيًا له في كتب فنون الأدب أو تاريخه ولا حتى كتب النقد القديم ، ممّا أشكل على الناقد ضبط تعريف دقيق له يوضح حدوده ، وأغلب التعاريف التي وردت ، تعتمد على تعريف النقاد الغربيين له ، لأنّ هذا الفن في نهاية الأمر هو فن مستورد ليس له تأصيل في تراثنا العربي بالشكل الذي ظهره عليه ، ومن أبرز التعاريف تعريف دائرة المعارف البريطانية له " بأنها قطعة متوسطة الطول ، تكون عادة منشورة في أسلوب يمتاز بالاستطراد ، وتعالج موضوعًا من الموضوعات ، ولكنها تعالج -على وجه الخصوص - ومن ناحية تأثر الكاتب به ³

فالمقال قطعة نثرية محدودة الطول ، تخوض في موضوع من المواضيع على سبيل الشرح والتحليل أو الإقناع ، وعادة ما تعبّر المقالة عن وجهة نظر الكاتب للموضوع المعالج وتأثره به ، وهنا يتولّد نوعان من المقال من حيث زاوية تناوله للموضوع : مقال ذاتي ، يُظهر فيه الأديب ميوله الإيديولوجي أو العقائدي وانطباعه الذاتي ، ومقال موضوعي ، يلتزم في الأديب بالشفافية في الطرح والبعد عن الأحكام الشخصية والميولات الفكرية.

ويعرفه إدmond Gosse (Edmund Gosse) بأنه "قطعة إنشائية ذات طول معتدل تكتب نثرًا وتلمّ بالمظاهر الخارجية للموضوع بطريقة سهلة وسريعة ، ولا تُعنى إلا بالناحية التي تمسّ الكاتب عن قرب ⁴ " ، ويقصد بقوله أنّ المقال يُلمّ بالمظاهر الخارجية للموضوع ، أي أنّه يحيط بجوانب متنوعة منه ، وتكون هذه المعالجة مبنية على تأملات وتصورات الكاتب حول هذا الموضوع ونظراته إليه ، لذلك وصفها بالسرعة ، لأنّها - في العادة - قلّما تكون مبنية على منهج علمي دقيق ، كالمناهج التحريبي وتقنياته ، وعادة ما تكون تعبيرًا صادقًا عن فكر الأديب وتصوراته للموضوع.

ويحدّد الناقد العربي فوزي عيسى في كتابه دراسات في الأدب الحديث تعريفًا جمع فيه حدود المقال " هو أحد فنون النثر الحديث ، وهو قالب أو شكل فنيّ يستخدمه الكاتب في عرض فكرة ما أو موضوع معيّن بطريقة مترابطة وأسلوب متميّز يُمتّع القارئ ويحقّق له فوائد فكرية وثقافية ويربطه بواقعه ومجتمعه ، وما يميّز به من أحداث يومية ، بل ويربطه كذلك بالأحداث العالمية ⁵ " ، وخلاصة الأمر أنّ فنّ المقال من الفنون النثرية الحديثة ، عرفها العرب في العصر الحديث متأثرين بالتراث الغربي ، يأتي في قالب فنيّ بطول محدّد ، يلتقي فيه الأديب مع واقعه ويحاور قضاياها ، ويعكس مستجدّاته ، تتسم لغته بالمباشرة في العرض وأسلوبه بالتميّز لتحقيق الغاية منه وهي الإفادّة والإفهام ، ولأنّه غير مقيد بوزن ولا قافية يجدّ فيه المؤلّف ظالته لإيصال أفكاره ، وراحة أكبر في التعبير عن أفكاره وانطباعاته ، وهذا ما يفسر لنا

تنوع مجالاته ، ومن تفرعاته المقال الأدبي والنقدي والسياسي والاجتماعي والعلمي والتاريخي والصحفي وغيرها من الأنواع التي تحددها طبيعة الموضوع.

3. نشأة فن المقال في الجزائر :

إن ما شهدته العرب من ثورة أدبية وعلمية في عصر النهضة قد مهد لميلاد فنون نثرية جديدة ، اقتحمت الساحة الأدبية ، وقد تأثر هذه الفنون بشكل مباشر بفعل عوامل كثيرة ، لعل أبرزها الحملة العسكرية بقيادة بونا برت على مصر ، وإن كانت الحملة الاستعمارية فال شر على الأمة العربية إلا أنها فتحت آفاق العلوم والمعارف فاحتك العرب بنظرائهم في أوروبا ، وتشبعوا بعلومهم عن طريق الترجمة وحملات الاستشراق ، كما كان لنشأة الطباعة والنشر وتطور حركة الإبداع والتأليف فضل في رقيها ، إضافة إلى ذلك ما شهدته الساحة الإعلامية من رقي وذلك بفضل انتشار الصحف والمجلات والجرائد . والحديث عن النهضة وعواملها في المشرق العربي هو فاتحة للحديث عن النهضة في الجزائر ، والتي بزغ فجرها بفضل نظيرتها في المشرق العربي ، فانتقل شعاع النهضة من الشرق العربي إلى المغرب العربي ، ولأن ارتباط الأدب بالحياة وثيق ومتين ، فقد ارتبطت الفنون الأدبية في المشرق بالواقع التهديوي ، كما أسهم الرقي الحضاري في رقي الأدب.

الأديب الجزائري ليس أقل حظاً من أترابه في المشرق ، وإذا سلمنا أن الأديب هو ذلك الإنسان المرفه الحس ، كثير الاحتكاك بواقع أمته ، فلا شك أن أدبه يشكل صورة صادقة عن مجتمعه ومرآة عاكسة لوقائعه ، والتلازم هنا مثبت ، فمنذ الأزل علاقة الأدب بالواقع وثيقة ، فإذا نهضت الأمة رقي أديبها وازدهر ، إذا فترت انحط وضاعت فنونها ، ففي ظل النهضة الفكرية التي عرفها العرب ، برز في الساحة الفنية الجزائرية أعلام حملوا على عاتقهم مسؤولية النهوض بالأمة وتخليصها من قيود الاستبداد والاستعباد ، وجعلوا من حبر أقلامهم سيوفاً في أعناق المحتل وشوفاً في أحلاقهم أمثال الشيخ عبد القادر المجاوي وأبي القاسم الحفناوي وعبد الحليم سماية ومولود الزري والأكاديمي محمد بن شنب ، والجيل الذي بعدهم كالشيخ الإبراهيمي والطيب العقبي والعربي التبسي والعلامة ابن باديس وغيرهم من علماء الجزائر وأدبائها ، فهذا الجيل من العلماء أثار سبل العلم ، وأثرى ساحة الفنون النثرية وامتألت الخزنة الأدبية بجميل صنيعة .

زيادة على ما سبق من الظروف التي هيأت لانتشار فن المقال في الأدب الجزائري تطور نشاط الصحافة ، لأن الصلة بين المقال والصحف وثيقة فهو الأرض الخصبة التي نبت فيها شجرة المقال ، وعليه عززت الصحف والمجلات انتشاره ، لإقبال القراء عليها من جهة ، ولسهولة نشرها وإيصالها إلى الجمهور من جهة أخرى ، من الصحف الجزائرية التي حملت أفكار الوعي والإصلاح جريدة الجزائر وذي الفقار لعمر راسم والفاروق لعمر بن قدور الجزائري ، وجريدة الحق الوهراي وجريدة الإقدام للأمير خالد ، وما كان يصدر عن علماء جمعية العلماء المسلمين من مجلات وجرائد : كالشهاب والسنة المحمدية والمنتقد وعيون البصائر وغيرها ، فقد اتخذ علماء الأمة هذه الصحف والمجلات منابر لنشر مقالاتهم وبت أفكارهم.

ولا يمكن إهمال دور كتاب المقال في الوطن العربي وتأثيرهم في إرساء دعائم هذا الفن في الجزائر وأسماء سعد الله بالمؤثر الشرقي في حديثه عن عوامل تطور الحركة الأدبية " أما المؤثر الشرقي ... فنعني به اقتداء الشعب الجزائري بما يجده في المشرق العربي من أفكار واتجاهات وما يحدث فيه من هزات قومية سواء أكان عمادها الماضي ومجده أم الحاضر في قلقه

وتحفّزه⁶ ، فقد ظهرت تيارات وأفكار في المشرق العربي وإنتاجات أدبية ، كان لها دور حاسم في نهضة هذا الفنّ وتبلوره ، ومن أشهر روادها عبد الرحمان الكواكبيّ والشّيخ محمد عبد وجمال الدين الأفغانيّ ، فقدت نضجت المقالة على أيديهم ، وانتهل علماء الجزائر من علمهم لما احتكّوا بهم في مختلف المناسبات كالحجّ أو في مراكز العلم كالأزهر والزيّتونة أو حتى من خلال زياراتهم إلى الجزائر أو كزيارة محمد عبده سنة 1903 ، وكذلك عن طريق كتاباتهم الصحفية والأدبية . كما كان لحركة الترجمة دور في انتشار فن المقال في الجزائر .

وبالحديث عن أنواع المقال يقسم عبد الله الزكيّ المقال الأدبيّ إلى نوعين " المقال الأدبيّ الإنشائيّ ، والمقال الأدبيّ الإصلاحيّ"⁷ ، غير أنّ هذا التفرّيع لا يعني إهمال بقية الأنواع ، وإقصاءها ، ولكنّه ركّز على المقال الأدبيّ لأنّه ميّز السّاحة النّثريّة إلى جانب المقال الصحفيّ ، وأمّا النوع الأوّل فيعني الكاتب فيه " بالتعبير عن مشاعره وأحاسيسه تجاه الطّبيعة أو تجاه الحياة ويعكس فيه تجربته ، ويعني فيه بالصّياغة والجمال واللّذة الفنّية ويراعي فيه التّركيز ما أمكن "⁸ ، فالمقال الإنشائيّ تعبير انفعاليّ عمّا يختلج روح الكاتب من مشاعر وأحاسيس اتّجاه مجتمعه أو الحياة ، يهتمّ كاتبه بانتقاء ألفاظه وحسن السّبك وجودة التعبير ورقة الصّياغة وعذوبة المبني ، والحديث عن النوع الثّاني سيّكون مفصّلاً في بقية البحث .

2.3 المقال الأدبيّ الإصلاحيّ في الجزائر :

ارتبط مفهوم المقال الإصلاحيّ بالاتّجاه الإصلاحيّ ومثّل هذا التّيار قامات من علماء الجزائر وفقهائها أمثال العلامة ابن باديس والبشير الإبراهيميّ والطّيب العقبيّ وغيرهم ، فكاتب هذا النوع من المقالات يجمع بين العناية بالصّياغة والتّعبير عن العاطفة والشّعور وبين التّعبير عن الفكرة الإصلاحيّة ، ومن هذا المنطلق يتجلّى بوضوح الفرق بين المقال الأدبيّ الإنشائيّ الذي يركّز صاحبه اهتمامه على العناية والإنشاء والتّعبير عن الانفعالات والمشاعر ، وبين النوع الثّاني ، فالقصد لا ينحصر في مجرّد التّعبير عن التّصورات والعواطف ، فالقصد منه شريف وغاية أعمق ، لأنّ صاحبه يرمي إلى إصلاح ما فسد في المجتمع ، وتصويب ما زاغ عن المسار القويم وتحرير الفرد من قيود الجمود والتّبعيّة والفكرية والارتقاء بالفكر البشريّ إلى مصاف التّفكير النّاقّد ، ومن بين الأدباء الجزائريين الذين أثروا ساحة النّثر بمقالاتهم الإصلاحيّة رواد التّيار الإصلاحيّ ، فقد اكتمل نضجها على أيديهم ووينعت ثمارها في كتاباتها.

من فطاحل هذا التّيار الذين تفحّّلوا في الاغتراف من مناهل التّراث العربيّ واقتبسوا من نور البيان وضروبه العلامة البشير الإبراهيميّ ، الذي تشرّب من فنون البيان العربيّ وأسجد ناصية البلاغة في كتاباته وامتطى سرج الإصلاح بحذاقته ، معتمداً على القرآن وإعجازه ، والحديث وبيانه ، والشعر وأزانه ، حافظاً للتّراث ، متشبعاً بالثقافة الأصيلة .

3.3. الجماليات الفنّية في المقالة الإصلاحيّة عند البشير الإبراهيميّ :

حظيت المدرسة النّثريّة الإبراهيميّة بمكانة راقية في التّراث العربيّ عامّة وفي الأدب الجزائريّ خاصّة ، فكاتبها أديب متميّز ، متمرّس في فنون البيان ، عالم بخبايا اللّغة ، بارع في السّبك ، حسن الصّياغة ، حذق في تصريف الكلام ، تطبّعه البديهة في الرّفق ، لا الخيال يعيب لغته ولا الجمود يعطلّ فكره ، وقد أقرّ النّاقّد الجزائريّ عبد الله الزكيّ بمهارة الرّجل في الكتابة النّثريّة وجمالية أسلوبه "فإنّك تقرأ المقال فيسيطر عليك بلغته وأسلوبه وحضور بديهته وقدرته على تصريف الكلام ، ولكنك تحسّ أنّ هذا الأسلوب ينقصه قدر من الخيال ، لا الخيال الذي يخلق في اللّاهية ، ولكنّه الذي يساعد على

تركيب الصّور اللفظية⁹ ، فمن يطالع مقالاته و يقرأ كتبه ، أو يتفحص رسائله ، يتفطن - لا ريب في ذلك - إلى مهارة العالم في لفت انتباه القارئ والسيطرة على اهتمامه وجذبه إلى تأمل بقية سطوره ، فالصيغة عنده حسنة والبيان مغدق واللغة مسبوكة ، فقد جعلها غاية لا وسيلة ، هدفها الإصلاح ونشر الوعي والارتقاء بالعقل الإنساني.

فقدّم لنصوصه بتوطئة حسنة ، وانتقى في مقالاته جيد اللفظ وسخره لغايته السامية ، ولا جدل في أنّ العالم تفنّن في توظيف ضرور البيان والبدیع ، فخطّ من المجاز طريقاً ونسج من الاستعارة بساطاً ، وشقّ من الكناية دروباً ، فتجمل نثره بنغم السجع وحسن الترادف ، وتأثير الاقتباس ، ورقة الجناس ، فلا الإطناب عنده ممل ولا الإيجاز مخلّ ، وكان يميل - رحمه الله - إلى الغريب من اللفظ وأحياناً المهجور منه ، حتى أنّك لتستغرب لماذا يقع اختياره على هذه الألفاظ ؟ وليس الأولى أن يستعمل لغة قريبة للغة التخاطب ، خاصة أننا نتكلم عن فترة عصيبة من التاريخ الجزائري ، كانت الأمية طابعاً لها ، " والإجابة هنا : " أنّ غرابة الألفاظ تشكّل حافزاً يجعلنا نتحرك نحو النص الأدبي لاستكناه أسرارها فكأنما الرموز اللغوية ماهي إلا مفاتيح تتيح لنا أن نفهم مضامينه¹⁰ ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فتكوين الأديب وتعليمه وسعة ثقافته ، وعمق اطلاعه على التراث العربي القديم من شعر جاهليّ ووأمويّ وعباسيّ ، وإلمامه بأمهات الكتب ومصادر اللغة وغيرها أثري معجمه وطوّر لغته ووهبه قدرة بالغة على الحبك على نسق الأولين ، كلّ هذه السمات جعلته رائد مدرسة الصنعة اللفظية وأحد أشهر أعلامها.

4. المقالة الإصلاحية عند البشير الإبراهيمي بين التأثير التقليدي وروى التجديد "الإنسانية آلامها

واستغاثتها" أنموذجاً.

من البديهي أن تتسم الفنون النثرية الحديثة بطابعين متناقضين ، طابع التقليد وطابع التجديد ، ويرجع ذلك إلى أنّها ظهرت في مرحلة انتقالية ، بين رواسب التقليد ودعاة التأثير القديم ، وبين أنصار الحداثة والتغيير .

1.4 ماهية المحاكاة و الحداثة في الأدب :

من بين المصطلحات النقدية التي ضجّت بها الساحة الأدبية ، مفهوم المحاكاة ، ومعناها مستمد من الفعل حاكى - يحاكي فلان، أيّ قلّده وفعل مثل فعله ، "المحاكاة أو التقليد(Imitation) هي اتّخاذ أعمال مؤلّف سابق نموذجاً يُحتذى به من جانب مؤلّف لاحق...وتشتمل هذه المحاكاة على الموضوعات المعالجة وطرق التعبير والأساليب البلاغية¹¹ ، وعليه فالمحاكاة اتّباع الأولين في أسلوبهم ولغتهم والكتابة على منوالهم ، واستعارة مضامينهم وصوّرهم وتشبيهاتهم ، تقوم على الحفاظ على التأثير القديم في الصياغة والبناء واللغة .

ومن المفاهيم النقدية التي حفلت بها الكتب النقدية والأدبية خاصة في منتصف القرن العشرين مفهوم الحداثة ، المصطلح الذي أفاض أعلام النقاد وأسأل خبره ، فأخذت الآراء تتجاذب لتحديد ماهيته ، لأنّه وليد التأثير بالغرب وتعرّف الحداثة : "أنّها مفهوم دال على التجديد والنشاط الإبداعيّ ، فحيث نجد إبداعاً ، نجد عملاً حداثياً، فإنّ الحداثة ظاهرة تاريخية إنسانية عامة نجدها في مختلف الثقافات ، وتحدّد الحداثة في هذا المعنى بعلاقتها التنافسية مع ما يسمّى بالتقليد أو التراث أو الماضي ، فالحداثة هي حالة الخروج من التقاليد وحالة التجديد¹² " ، فالحداثة نقض القديم ، وإن كان اتّباع القديم محاكاة ، فالتجديد حداثة وتشمل ميادين مختلف من حياة الإنسان ، وتعني بصورة أوضح التجديد في

طريقة العيش أو الكتابة أو التفكير ، "وتعني في تصور بعض الباحثين تطوُّراً في الشكل والمضمون وهو ما مال إليه الزميلان الدكتور خرفي ، والدكتور الركيبي¹³ ، فالناقدان الجزائريان يحدّدان دلالتها من خلال تطور في بناء الجنس الأدبي وفي مضمونه.

1.4 مظهرات التأنيث التقليدي في مقالة " الإنسانية آلامها واستغاثتها " :

من المسلم به أنّ الشيخ الإبراهيمي من رواد مدرسة الصنعة اللّفظيّة ، وهي مدرسة أدبيّة تعني بجمال الأسلوب ورطانة الصّوت والاهتمام بالزّخارف البديعيّة ، ومن روادها في الأدب العربيّ القديم أبو تمام والبحريّ ، أمّا في الحاضر فأبرز فرسانها الكواكبيّ والشّاعر مفدي زكريا والشيخ الإبراهيمي .

ولعلّ التأثير بمفاهيم هذه المدرسة جعل الإبراهيمي ينهج منهج القدامى في العرض والطّرح فجاءت مقالاته الإنسانية آلامها واستغاثتها لوحة بهيّة الصّورة ، نبيلة القصد ، جمّة الفائدة ، كما جعلته يتحكّم في ناصية الضّاد ويخضعه لغايته الشّريف ، فكتب فأبدع وخاطب فأبلغ ، متّخذاً من التّراث منهلاً ، ومستلهماً من البلاغة فنوناً ، منتقياً من البيان أصنافاً ومزجاً من البديع ألفاظاً ، وأوّل ما يلاحظه المطالع لمقالاته جماليّة التّناص وحسن توظيفه.

1.1.4 حضور التّناص في مقال الإنسانية:

والمقصود بالتّناص تداخل نصّ مع نصّ آخر ، فوجود التّناص جلي في كتابات البشير الإبراهيمي لأنّه قد أشرب الثقافة الإسلاميّة وتشبّع بالتّراث العربيّ:

أ- الاقتباس من القرآن الكريم:

رصّع الإبراهيمي خطابه الإصلاحيّ في مقالاته بالاقتباسات من القرآن والحديث الشّريف ، فلا تكاد تخلو كتاباته من الإيحاء القرآنيّ ، ينحت من ألفاظه جملاً ، ويفصّل من آياته أثواب الكلم . ومن اللفظ القرآنيّ الوارد في مقالاته (بار ، كافر ، فاجر ، تدابروهم ، الصّادقين ، الخير ، الشّر ، الرّوح ، الأنبياء ، المرسلون ، العباد الصّالحون ، المسلمين ، الرّكاة ...) ، فحضور اللفظ القرآنيّ مؤشّر على تأثر الكاتب بثقافته الإسلاميّة ودليل على نزعة الدّينيّة.

ب- الإيحاء القرآنيّ:

ولأنّ النصّ القرآنيّ أبلغ قولاً وأفصح تعبيراً وأكثر تأثيراً في النفوس فقد اعتمد الإبراهيمي على الإيحاء القرآنيّ وذلك عن طريق إدماج نصوص القرآن في مقاله بشكل متقن ، ولا يتنبّه لذلك إلّا العالم الفطن بالقرآن وأسلوبه ، ومن نماذج هذا التّداخل قوله " الإنسانية التي لو تمثّلت بشراً لتمثّلت ... " فالعبارة مقتبسة من الآية القرآنيّة { فتتمثّل لها بشراً سوياً } [مريم : 16] ، وكذا قوله " قيّض الله له فيلسوف المعرّة " تتداخل مع قوله { ومن يعشّ عن ذكر الرّحمان نقيّض له شيطاناً } [الزّخرف 35] ، وكذلك قوله " ... حزب الله المفلحون " فهي مأخوذة من قوله تعالى { ... أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون } [المجادلة : 21] ، وفي مقام آخر " ... باستحلاب الفقير والأخذ بيده لأحسنوا لأنفسهم ... " فهي تلتقي مع قوله تعالى { إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم } [الإسراء : 7] ، فللعالم طريقة مذهلة في إذابة نصوص القرآن بين طيات لغته ، حتى ليحسبها الجاهل بالقرآن من كلامه.

ج- التّضمين:

اطّلع الإبراهيمي على التراث العربي وكون ملكته اللغة من منابع اللغة الأصيلة ، فحفظ الشعر العربي وقرأ نثره ، وتزود من أمهات الكتب بجميل اللفظ وفصيحه ، واغترف من بلاغة العرب واستسقى من فصاحتهم ، ومن مواطن التضمنين في مقالاته ، قوله : " لا ندري ، ولا ندري لماذا لا ندري " ، فبعض من قوله هذا مشابه لقول العالم النحوي وإمام العروض الخليل بن أحمد الفراهيدي "الرجال أربعة : رجل يدري أنه يدري ، فذلك العالم فاسأله ، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري ، فذلك الناسي فذكره ، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري ، فذلك جاهل فعلموه ، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك الأحق فاحتنبوه"¹⁴ ، فقد ذكر حال الأمة وما أصابها من جهل وأسقط على ذلك تصنيف الفراهيدي.

و كذا في عبارة " وتحكيم السيوف في مواقع الخلاف " ، فقد ضمن الإبراهيمي قوله بعبارة لعنزة بن شداد في قوله: **حَكَمَ سِوْفَكَ فِي رِقَابِ الْعَدَلِ *** وَإِذَا نَزَلَتْ بَدَارٌ ذَلَّ فَارَحِلْ** ، فبعض المواقف تقتضي تحكيم السيوف لأنها الفصل في المقام ، في حين تستدعي مواقف أخرى التأني والتريث.

ويظهر أيضا في قوله " تركيب مطايا الخير " فهذا القول يتداخل مع قول الشاعر الأموي جرير في مدح بني أمية: **"أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا *** وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونٌ رَاحَ"** ، هذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على الاطلاع الشاسع وإلمام الشيخ بالتراث الشعري والنثري العربي القديم ، الذي صقل لغته وأثرى معجمه وأفاض عليه فضله .

2.1.4 دينامية التشكيل البديعي:

يخطّ الإبراهيمي في نصوصه لوحات من البيان والبديع ، تجسّد تمكّنه اللغوي وحسن منطقه وجزالة تعبيره ، فتتيح له ضروب البديع القدرة على حسن السبك وجودة البناء ورقة الأسلوب ، مضاهيا أسلوب المقامات ، فقد جاءت مقالاته منمّقة بصنوف البديع وهذه صورة من صور التقليد فيها ، ومن بين المحسنات التي يكثر ورودها في نصوصه:

-**السجع** : من بين المحسنات التي تأسر القارئ وتجذبه انتباهه للنص ، سجع الكلمات ، فتناغم الإيقاع ووجود جرس موسيقي في مقاله يلفت انتباه السامع ، ومن الأسجاع الواردة في مقال الإنسانية : " لا تميّز بين بار منه ولا فاجر ، ولا تفرّق بين مؤمن وكافر " وأيضاً في قوله " قدما بأبنائه الصادقين ، على أبنائها المارقين ، استغاثت من المفسدين .. " واستغاثت من المشعوذين المحتالين والممخرقين المبتدعين والضالين المضللين ... " وتوظيفه للسجع ليس متكلفاً ولا مبالغاً فيه إنما هو نوظيف محكم وبشكل منتظم يخدم خطابه الإصلاحية الذي هدفه بالدرجة الأولى التأثير في السامع.

-**الجناس**: من ألطف فنون البلاغة وأعذبها في هندسة العبارة الجناس ، فاستعماله يولّد نغماً متناسقاً في الكلام ، ويجعل العبارة مرنة سلسلة تستصيغها الأذان وتستهوّي الأفئدة ، وفي مقالته " الإنسانية " زين الإبراهيمي أسلوبه بالجناس بنوعيه ، وأكثر من الناقص ، وجاء توظيف في مقام الوصف والإخبار ، من ذلك قوله "ماكفاها أن تنقلب الحقائق على أبنائها المارقين العاقين " وكذا قوله في وصفه للإنسانية " واستغاثت من المفسدين لنظام الفطرة ، العاملين على تفريق هذه الأسرة " ووظفه في مقام آخر لبيان أوضاع الإنسانية بسبب أبنائها الفاسدين " واستغاثت من عباد المادة الحائدين عن الحادة " وأيضاً في قوله " طواغيت الاستبداد وقياصرة الاستبعاد " " الضالين والمضللين " وفي خاتمة مقاله ، دعا إلى إيجاد حلّ لما

تعانيه هذه الإنسانية وكشف هذا السر الذي يزيح عنها الشر المحقق بما في قوله " متى يفقه أغنياء الأمم هذا السر ، فيعملون على اتقاء هذا الشر. "

ومن نماذج الجناس التام قوله : "فمتى يقف عقلاء الأمم بين الصقّين موقف دعاة التحكيم يوم صقّين" فقد استحضر قصّة معركة التحكيم المشهورة في معركة صقّين للحكم بين هذين الصقّين من الناس ، واستعماله لهذا الجناس بهذه الطريقة الحسنة دليل على براعته وعمق ثقافته الأدبية.

-التضاد: من المعلوم أن توظيف الأضداد يقرب المعاني ويزيل الإبهام عن أي لبس قد يحوم حول اللفظ ، كما أنه بالأضداد تثبت المعلومة وترسخ دلالة اللفظة ، فالقوة التأثيرية للتضاد تحرك نفوس المتلقين ، خاصة إذا أحسن المتكلم استعماله ليستميل العقول ، وتوظيف التضاد من سنن العرب في كلامها ، والإبراهيمي متشبع بالثقافة العربية ، ومطلع على أمهات الكتب وعارف بأسرار اللغة وخبائها ، وعليه فقد اعتمد على الطباق والمقابلة بشكل كبير من أمثلة ذلك:

•الطباق الإيجابي: ورد في مواضع متعدّد منها قوله : " لا تفرق بين مؤمن منهم وكافر " ، " فما كاد المتنبي واضع شريعة التمايز بين السادة والعبيد " " أما كفتها مصائب الأرض حتى تظاهرها مصائب السماء " " نقوله ولا نخفيه " " تلتهم الأخضر واليابس " ، ففي توظيفه لهذا الضرب من التضاد فيه تأكيد على المعنى وتثبيتته في النفوس ، وبيان لماهيته من باب الشمولية أحيانا وأحيانا أخرى على سبيل التخصيص ، وتلك طريقة العلماء وسيرة الحكماء في كلامهم.

أما نماذج الطباق السلبي فهي قليلة منها قوله : " الوارثين لما لا يورث " " لا ندري لماذا لا ندري ..إنما الذي ندريه "

•المقابلة: وهي أوسع من الطباق وأكثر تأثيرا ، فهي تؤكد المعاني بالإتيان بأضدادها ، وتوضح المقاصد من خلال ذكر نقيضها ، من أمثلة ذلك " " ما كفاها أن يكون في أبنائها قوي يستعبد ضعيفا وشريف يستخدم مشروفا " وفي قوله "يركبون مطايا الخير للشر يستعملون سلاح النفع للضرر ويتوسّلون بالدين لجمع الدنيا" وأيضا " استغاثت من عباد المادّة الحائدين عن الجادّة فأغاثها أنصار الروح " ، وكذا قوله " استغاثت من طواغيت الاستبداد وقياصرة الاستعباد ، فأغاثها دعاة الديمقراطية وأنصار المساواة والإنصاف " واستحضاره لهذه المقابلات ليس لمجرد المقارنة فحسب ، إنّما ليربط المعاني ببعضها البعض ويؤكد على الفكرة أكثر بغية تثبيتها في ذهن القارئ ، ليستحليها بوضوح .

إنّ ما تمّ عرضه من النماذج التي استعمل فيها الإبراهيمي فنون البديع ، توحى -لا محالة- بأنّ أسلوب الرجل لا يخلو من الصنعة اللفظية ، واهتمامه بالمبنى لم يخلّ يوما بالمعنى في مقالاته ، " فالمحسنات البديعية ليست اصطناعا للتحسين والبديع وإنّما هي أصلا للإبلاغ والتبليغ¹⁵ " ، وهذا القصد تحقّق في مقالات الإبراهيمي ، لأنّ هدفها الأسمى هو الإصلاح والنّهوض بالمجتمع وترقية الفرد وإفهامه لرسالة الإصلاح النبيلة .

3.1.4 ديناميّة التشكيل البياني:

إنّ المتتبع لكتابات الإبراهيمي سيكتشف أنّها تضمّ صنوفاً من البيان ، تتداخل فيه عوالم من الأخيلا وتراكيب من الصّور ، تتمّ عن روح مبدعة ، وتشكّل مزيجاً فنياً يسحر القارئ ويدعوه إلى التأمّل في جودة التعبير وحسن التمثيل، بأسلوب يضاهي فطاحل اللغة وأئمة البيان ، ومن الصّور التي وظّفها الإبراهيمي بكثرة في مقاله الإنسانية.

1 -التشبيه : والتشبيه عقد مقارنة بين شيئين اشتراكاً في صفة أو أكثر ، لغرض تقريب الصّور ، يتمتّز -عادة- بالخيال ، وأوّل تشبيه يصادفنا في مقاله التشبيه البليغ على صورة مركب إسنادي اسمي من مبتدأ وخبر في قوله " الإنسانية هي تلك

الأم الرؤوم" ، فشبه عاطفة الإنسانية بعاطفة الأم الحنون ، التي تحب كل أبنائها وإن كان بعضهم كافراً أو فاجراً أو عاقاً ، وفي قوله " تلك الأم المعذبة بالويلات والحن " وجه المشابهة في الصورة أنّ الإنسانية كالأم ، تتحمل كل الويلات والطعنات في سبيل تربي أبنائها ، وإن جاءتها بعض الطعنات من أبنائها " ، وغرضه من التشبيه تقريب الصورة لفهم المتلقي ونقل المعنى إلى الملقى عن طريق المشابهة.

2-الكناية: من ألطف أنواع البيان وأجودها في التعبير عن المعاني ، فالكناية تسهل على المخاطب تصوير المعنى بأسلوب لطيف ومشوق ، فهي من أشهر فنون العرب في كلامها ، تنم عن فطنة وبراعة في تخير المعاني ، ونجد الإبراهيمي يوظفها بكثرة في مقالاته ، من مواضع الكناية في مقاله " استغاثت من عباد المادة" وعباد المادة كناية عن موصوف هم الفلاسفة الماديون ، الذين يعتبرون أن الإنسان مادة تخلو من روح ، وفي قوله " ما كاد المتني ...يجفّ ثراه " فعبارة يجفّ ثراه تحمل كناية عن صفة قصر المدة ، فقبوره لم يجفّ بعد والله بعث بعده رجلاً مبشراً بشريعة سمحاء ، وفي قوله " وعرفوا كيف يحاربون الفقر باستجلاب الفقير والأخذ بيده " ، والكناية هنا في قوله ، الأخذ بيده ، وهي كناية عن صفة الإغاثة والتّجدة ، وفي عبارة " يمتصّون دماء البسطاء" كناية عن صفة الاستغلال ، فاستعباد الضعفاء ، فيه استغلال لهم ولدمائهم ، وأغراض الكناية في مقاله مختلفة ، تارة الاختصار في بيان صفة المكى ، كعبارة "عباد المادة"، وتارة إعطاء الحقائق مصحوبة بدليلها ، وهذا ما نجده في الأمثلة التي أوردنا.

3 -الاستعارة : هي تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه ، فهي أبلغ من التشبيه قليلاً لأنها تُشغل ذهن المتلقي ، فالتشبيه فيها مخفي ، مما يثري العبارة ويضاعف سعة الخيال فيها ، و من أكثر صور الاستعارة وروداً في مقال الإبراهيمي:

*الاستعارة المكنية: في قوله " تنقلب الحقائق على أبنائها " شبه الحقائق وهي شيء معنوي بالموازين وهي شيء مادي ، حذف المشبه به وترك لازمة من لوازمه هي الفعل تنقلب ، وفي قوله أيضاً " يركبون مطايا الخير " فشبّه الخير بشيء مادي يمتطى كالحصان مثلاً ، فحذف المشبه به وترك لازمته " يركبون ، مطايا" ، وكذا في قوله " البائعين للشفاعة ، العابدين للوهم " ، فقد شبه الشفاعة بالسلع التي تباع وتشترى ، وشبه الوهم بالأصنام ، فحذف المشبه به ، وترك لازمة من لوازمه ، هي " البائعين " و" العابدين " . وكذا في عبارة " يحاربون الفقر " فقد شبه الفقر بالعدو الذي يُحارب ، فحذف المشبه به وترك اللازمة لتدلّ عليه ، وبلاغة هذه الاستعارات تجسيد المعنوي في صورة محسوسة لتقريب الصورة وإجلاء المعنى للسامع ، والمبالغة في تصوير المعاني بنقلها من المعنوي إلى المحسوس.

فاعتماد الإبراهيمي على صنوف البيان والبديع واستلهاهم صور القدامى وأخيلتهم ، دليل على اطلاع واسع ، وإلمام كبير بالثقافة العربية ، ويعكس ذلك تأثر الأديب بالتراث الأدبي ، فالكاتب حافظ على نفس النسق التقليدي في بناء الصور وإقامة التشبيهات واستحضار الكنايات فلم يحد عن الطريقة التقليدية في عرض الفكرة وتقريبها إلى المتلقي.

2.4 مظهرات الحداثة في مقالة الإنسانية :

ارتبط مفهوم الإصلاح في النص القرآني بإصلاح حال الإنسان في مواضع متعددة ، وأكد على أنّ الإصلاح سمة الأنبياء والمرسلين وغاية رسالتهم السامية فقد أوصى سيدنا موسى أخاه هارون بالإصلاح في قومه وعدم اتباع سبل المفسدين ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:

[142] ، وفي الآية ﴿ أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 222] ، فيوصي الله بآلا يجعل المسلمون أيماهم مانعا لهم من البرّ وصلة الرّحم والتّقوى والإصلاح بين النّاس ، فحبّ الخير للناس كافّة ، والعمل على إصلاح حال الإنسان فكرة متأصلة في الدّين وجزء مهمّ من العقيدة ، ولأنّ الشّيخ الإبراهيميّ متشبع بالتّقاليد الدّينية ومنتهل من تعاليم الدّين الإسلاميّ ، فقد حملت مقالاته دعوة صريحة إلى الارتقاء بالإنسان وتحريره فكريّا وروحيا وماديا ، ولعلّ مقالاته: التعاون الاجتماعيّ ، الإنسان أخو الإنسان ، الإنسانية : آلامها واستغاثتها ، وسلسلة مقالات " حدّثونا عن العدل فإننا نسيناه ، خير مثال على نزعتة الإصلاحية ، وقد وقع الاختيار على مقالة " الإنسانية " لما يحمله النّص من قيم أدبيّة فنيّة واجتماعيّة وإنسانيّة ، فالنّص أنموذج عن المقال الإصلاحيّ الذي يعدّ فنّا مستحدثا .

1.2.4 تجليات النزعة الإنسانية:

إنّ ميل الإنسان إلى حبّ الخير وإصلاح حال المجتمع متأصل في النّفس البشريّة ومتجذّر في أواصرها ، ومما لا جدل فيه أنّ الأدب هو انعكاس مباشر للحياة ومرآة عاكسة لثقافته وتحلّي فيه فلسفته وعقيدته وتراثه ووقائعه ، وتعرّف النزعة الإنسانية بأنّها " الميل إلى حبّ الإنسانية واعتبار الخير العامّ للإنسان الهدف الأسمى"¹⁶ ، ومن المسلّم به أن هذه النزعة من مظاهر الحداثة في الأدب ، وإن وجدت لها جذور في تراثنا الأدبيّ، وينطبق هذا المفهوم بشكل واضح على الشّيخ البشير الإبراهيميّ في الكثير من كتاباته ، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على تقدير الرّجل للنفس الإنسانية ومدى سماحة مذهبه ، ولأنّه من رواد الحركة الإصلاحية ، فالرغبة في إصلاح أمور المجتمع عقيدة في مذهبه ، ومن العبارات الدّالة على نزعتة قوله في مستهلّ مقالته " الإنسانية : آلامها واستغاثتها : "الإنسانية هي تلك الأمّ الرؤوم التي لا تحابي واحداً من أبنائها دون الآخر ولا تميّز بين بار منهم وفاجر ولا تفرّق بين مؤمن وكافر...¹⁷ " فقد شابه في تعريفه بين الإنسانية والأمّ الرّحيمة التي لا تفرّق بين أبنائها ولا تميّزهم على أساس البرّ والعصيان، كذلك الحال بالنسبة للإنسانية التي لا تحدّها قيود الدّين أو اللّون أو المذهب أو اللّسان أو الثّقافة ، فلا تقييم حدوداً بين النّاس.

كما تتجسّد في إحساسه بالآخرين ومقاسمتهم آلامهم وأحزانهم وإن اختلفت أعراقهم وأديانهم والشعور الإنسانيّ بحول ما تقاسيه الإنسانية من تقاطع وتدابير وبث المكائد والحروب وسطوة القوي ، فنجدد يدعو إلى التّراحم وإغاثة المستضعفين، " ألا فليرحم الإنسانية من في قلبه رحمة ، ألا وإنّ الإنسانية تستغيث فهل من مغيث؟ " فميله إلى إصلاح حال الإنسان وتحريره من قيود الاستعباد والجمود جليّ في أفكاره ومقالته.

2.2.4 تجسيد مفهوم الأديب الملتزم:

من المفاهيم الحديثة التي انتشرت صداها في ساحة الأدب "الالتزام" وتنطوي الكلمة على دلالات فلسفيّة وأخلاقيّة واجتماعيّة ، ويُقصد به " اعتبار الكاتب فنّه وسيلةً لخدمة فكرة معيّنة عن الإنسان، لا لمجرد تسليّة غرضه الوحيد المتعة بالجمال"¹⁸ ، ويتّضح من خلال هذا القول أنّ الأدب الحقّ ليس فنّا من أجل الفنّ ، إنّما هو الفنّ من أجل الحياة والتّغيير الإيجابيّ والنّهضة الإنسانية ، وينطبق على المفهوم على الشّيخ الإبراهيميّ إلى حد بعيد ، لأنّ الكاتب حمل على عاتقه مسؤولية الدّود عن حمى وطنه ، وأمتّه ، وعامة الإنسانية ، فهو أنموذج للكاتب الذي يسخر قلمه للدّفاع عن عقيدته ومذهبه وأبناء وطنه وبني جلدته ، فهو يدعو في مقالاته إلى التعاون الإنسانيّ والعدالة وإنصاف المستضعفين والتّخلص من المستدمرين وفك قيود الاستعباد ، يقول في مقالته الإنسانية "إنّما الذي ندره ونقوله ولا نخفيه ، هو أنّه لو

تساند أغنياء الأمم ومدّوا أيديهم متعاضدين ، وعرفوا كيف يحاربون الفقر باستجلاب الفقير والأخذ بيده لأحسنوا لأنفسهم وللعالم " ، ففكرة الالتزام تظهر في تصويره للواقع من منظور الناقد الفاحص لداء مجتمعه والمطّيب لعلته، كما أوجد حلولاً فاعلة ، فعلى سبيل المثال الحلّ للخروج من ظلمة الفقر هي بالتعاضد ومساندة الغني للفقير والأخذ بيده والإحسان إليه ، ففي ذلك منفعة لهم وللعالم أجمع .

3.2.4 جمالية الأسلوب في العرض والإفهام :

من مميزات الأسلوب عند الإبراهيمي البراعة في تحيّر المعاني ، والقدرة على توليدها معتمداً على صنوف البيان والبديع ، "فإنّك تقرأ المقال فيسيطر عليك بلغته وأسلوبه وحضور بديهته وقدرته على تصريف الكلام"¹⁹ فهو يخاطب المتلقي بأسلوب العالم الموجّه والناقد البناء والمعلّم المربيّ ، فالنصّ عند بناء متكامل متناسق ، تحكمه جودة اللفظ وحسن الصياغة والتّماسك بين بنياته ، فلا تجد في أسلوبه تناقضا ، " فالإبراهيمي يعتمد في مقالاته منهجاً علمياً منطقياً ، يظهر جلياً في أفكاره المرتبة والمصنّفة تصنيفاً منهجياً "²⁰ ، ففي نصّ " الإنسانية" تبنى الشيخ منهجاً علمياً دقيقاً ، معتمداً في طرحه على الانتقال من العام إلى الخاص ، بمعنى آخر الانتقال من المحمل إلى المفصل ، فقد استهل مقاله بتعريف شامل للإنسانية مستنداً على استشهاد شعريّ عزّز به فكرته ، ثم انتقل إلى بيان حال الإنسانية وما أصابها من ويلات ومحن ، مستشهداً بقبصص تاريخية وأحداث واقعية ، أمّا في نهاية المقالة ، فلم يكتف بمجرّد تشخيص العلّة ، إنّما أوجد الدّواء الذي يطبها ، فاقترح حلّاً يسوي أوضاعها ، ومن سمات أسلوبه أيضاً الاعتماد على أسلوب السّخرية التي تكاد تكون خاصيّة في جلّ مقالاته ، وتبنيه لهذه الطّريقة ليس من باب الهزل والإضحاك ، إنّما هي صورة من طرق التّعبير لتغيير الواقع ونقده ، من العبارات الدّالة على ذلك " لا ندري ، ولا ندري لماذا لا ندري " ، وتدّل هذه الصّغية على كمية الجهل التي انتشرت في المجتمع والتّهاون في طلب العلم ، فالإنسان الذي لا يدري ، قد يعلم سبب جهله فيسعى للتّعلم ، لكنّ الأدهى والأمرّ هو ذلك جاهل ولا يدري أنّه جاهل.

5. خاتمة:

وخلاصة الأمر، أنّ البشير الإبراهيمي من رواد المقال الإصلاحيّ في الجزائر ومن الأوائل الذي تجسّدت في كتاباتهم روح الدّفاع عن الأمتة وإصلاح حالهم والدّعوة إلى الارتقاء بها ، ووقدّ تميّز أسلوبه في الكتابة الثّريّة بجودة السّبك وحسن القول وبلاغة التّشبيه والبراعة في استعمال صنوف البيان والبديع ، براعة تضاهي أئمة البلاغة وجهابذه اللّغة ، فالمقال الإصلاحيّ عنده مزيج من التّأثر بالقديم والحديث ، جمع فيه بين التّأثيث القديم محاكيا فحول الأدباء ، وبين التّسق الحديث في اتّخاذ الأدب رسالة سامية تخدم الفرد وتسعى للارتقاء بالنّفس البشريّة وتلبية حاجياتها .

ومن النّاتج المتوصّل إليها :

- الإبراهيمي من رواد مدرسة الصّنع اللّفظيّة اهتمّ بالزّخرفة اللّفظيّة وصقل لغته وتزيين صياغته. وهذا راجع لكونه كثير الاطّلاع على التّراث القديم ومنتشع بالثقافة الأصيلة التي استقاها من أمهات الكتب.

- اصطبغت المقالة الإصلاحية بالحدثة في مضامينها ومعانيها وعرض أفكارها ، ففقد أفرغ أسلوبه ومحركاته للقدم في قالب نثري حديث مزج بين تأثره بالتأنيث التقليدي في لغته وبين سمات الحدثة في مضمونه.
- اتخذ الإبراهيمي المقال أداة للإصلاح والتهوض بالأمّة وتحمل فيه مسؤولية الدّود عن حياض أمّته وجماعها.
- جسّد الأديب مفهوم النزعة الإنسانية في مقاله ، حين دعا إلى القيم الإنسانية وحفظ حقوق الإنسان والدّفاع عنه ، والدّعوة التّهاون والتكافل الإنسانيّ.
- الالتزام ظاهرة أدبية حديثة اصطبغ بها المقال الإصلاحية عند الإبراهيمي.

6- الهوامش:

- ¹ ابن فارس : معجم مقاييس اللغة : مادة قول
- ² ابن منظور : لسان العرب : مادة قال
- ³ محمد عبد المنعم خفاجي : دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه ، دار الجيل ، ط 1 ، 1412-1993 ، بيروت ، لبنان ، ج 2 ، ص 422.
- ⁴ محمد يوسف نجم : فنّ المقالة ، دار الثقافة ، ط 4 ، بيروت ، لبنان ، 1966 ، ص 94.
- ⁵ فوزي عيسى : دراسات في الأدب الحديث ، دار المعرفة الجامعية ، طبع ، نشر ، توزيع ، 2010 ، ص 94
- ⁶ أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، دار الزائد للكتاب ، ط 5 ، الجزائر ، 2007 ، ص 24
- ⁷ محمد مصايف : النشر الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983 ، ص 113.
- ⁸ محمد مصايف : النشر الجزائري ، 136
- ⁹ عبد الله الرّكيبي : تطور النشر العربي ، ص 35
- ¹⁰ عبد الحميد بوزينة: بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي ، دراسة وصفية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر ، ص 34.
- ¹¹ مجدي وهبة وكامل المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مكتبة لبنان ، ط 2 ، بيروت ، 1984 ، ص 339.
- ¹² غانم هنا ، عبد الله الغذامي ، ناصيف نصار ، مرسل العجمي : ندوة حول عناصر الحدثة في الفكر العربي المعاصر ، العدد 61 ، 1998 ، ص 22
- ¹³ محمد مصايف : النشر الجزائري الحديث ، ص 136
- ¹⁴ المرتضى الزبيدي : إتحاف السّادة المتّقين بشرح إحياء الدّين للعلامة أبي حامد الغزالي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت لبنان ، ص 576، 576
- ¹⁵ ميشال زكريا : الأسنّة في علم اللغة الحديث ، ط 2 ، بيروت ، لبنان ، 1985 ، ص 90.
- ¹⁶ مجدي وهبة وكامل المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص 405.
- ¹⁷ البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، جمع وتقديم : د. محمد طالب الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، بيروت ، لبنان 1997 ، ج 1 ص 62-63.
- ¹⁸ مجدي وهبة وكامل المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص 58
- ¹⁹ عبد الله الرّكيبي : تطور النشر العربي ، ص 147.
- ²⁰ عبد المالك مرتاض : فنون النّثر الأدبيّ في الجزائر (1931-1945)، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر ، ص 372.

7. قائمة المراجع:

- ابن فارس : معجم مقاييس اللغة - المعجم الالكتروني-
- ابن منظور : لسان العرب - المعجم الالكتروني-
- أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، دار الزائد للكتاب ، ط 5 ، الجزائر ، 2007

- البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، جمع وتقديم : د.محمد طالب الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1، بيروت ، لبنان 1997 ، ج1
- عبد الحميد بوزوينة: بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون الجزائر.
- عبد الله الزكي: تطور النشر العربي ، ص147
- عبد المالك مرتاض : فنون النثر الأدبي في الجزائر(1931-1945)، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون، الجزائر
- غانم هنا ، عبد الله الغدامي ، ناصيف نصار ، مرسل العجمي : ندوة حول عناصر الحداثة في الفكر العربي المعاصر ، العدد61
- فوزي عيسى : دراسات في الأدب الحديث ، دار المعرفة الجامعية ، طبع ، نشر ، توزيع ، 2010 ،
- جدي وهبة وكامل المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مكتبة لبنان ، ط2 ، بيروت ، 1984
- محمد عبد المنعم خفاجي : دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه ، دار الجيل ، ط1 ، 1412-1993 ، بيروت ، لبنان .
- محمد مصايف : النشر الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983.
- محمد يوسف نجم : فن المقالة ، دار الثقافة ، ط4 ، بيروت ، لبنان ، 1966.
- المرتضى الزبيدي : إتحاف السادة المتقنين بشرح إحياء الدين للعلامة أبي حامد الغزالي ، دار الكتب العلمية ، لبنان
- ميشال زكريا : الألسنية في علم اللغة الحديث ، ط2، بيروت ، لبنان ، 1985